El sol sale por el Oeste

The sun rises in the West

الشمس تشرق من الغرب أيضا

د. حسناء بوزويتة الطرابلسي
Hasna TRABELSI
Profesora de Literatura Andalusí, Universidad de Túnez
hasna.trabelsi@yahoo.fr

Recibido: octubre 2010
Aceptado: mayo 2011

RESUMEN
En este artículo presento las contribuciones de los estudiosos musulmanes occidentales sobre las relaciones Este/Oeste, destacando el sentimiento de los estudiosos de inferioridad hacia los orientales, que ha crecido convirtiéndose en una especia de complejo frente a todo aquello que viene del Este. Aún así, los estudiosos andalusíes, consciente de la necesidad de ir más allá de este complejo y de revalorizar la personalidad andalusí y sus destacadas contribuciones, se esforzaron en incluir su patrimonio en antologías y enciclopedias. Analizo estas contribuciones basándome en algunos textos del libro de Abu-l-Walid al-Himyari (440/1048-49), Al Badi' fi wasf ar –Rabi'.

Palabras clave: estudiosos musulmanes de Occidente, Al-Qayrawan, Al-Andalus, personalidad andalusí, poesía andalusí, Al-Badi fi wasf ar-Rabi. Al-Himyari.

ABSTRACT
In this study I present the contributions of Occident muslim scholars in the East/West cultural relations highlighting the scholars' feelings of inferiority towards Orientals, which have grown into a kind of complex vis-à-vis whatever comes from the East. However, the Andalusian scholars, aware of the necessity to go beyond this complex and valorize the Andalusian personality and its outstanding contributions, strive to include their patrimoine in anthologies and encyclopedias. I discuss these contributions on the basis of some texts from Abu- l-Walid al- Himyari's book (440/1048-49), Al Badi' fi wasf ar –Rabi'.

Key words: Occident muslim scholars. Al-Qayrawan. Al-Andalus. Andalusian personality. Andalusian poetry. Al-Badi fi wasf ar-Rabi. Al-Himyari.

ملخّص

تناقش الباحثة، في إطار العلاقة الثقافية بين المشرق والغرب الإسلامي، موضوع الإفادة والإضافة، مبرزة إحساس أدباء الغرب الإسلامي عموما بتفوّق المشارقة، ممّا شكل لديهم نوعا من العقدة إزاء كلّ ما هومشرقي، مبيّنة من ناحية أخرى، وعيهم بضرورة تخطّي تلك العقدة، و حرص أدباء الأندلس على جمع تراثهم وتصنيفه في مختارات وموسوعات، دفاعا عن الشخصية الأندلسية وعطائها المتميّز. واتخذت من كتاب"البديع في وصف الربيع" لأبي الوليد الحميري(ت440/1048-49)، نموذجا عيّنت فيما حلّلت من نصوصه، مواطن الطرافة والإضافة في الأدب الأندلسي.

الكلمات المفاتيح: أدباء الغرب الإسلامي. القيروان. الأندلس. الشخصية الأندلسية. الشعر الأندلسي. البديع في وصف الربيع. الحميري.

شهدنا خلال معاشرتنا للأدب الأندلسيّ – و قد بعد مكانا و تأخّر زمانا عن مركز الحضارة العربيّة الإسلاميّة – نشأة شخصيّة أندلسيّة، إن لم تستقلّ تماما عن الشخصيّة المشرقيّة فهي مستوفاة شروط إثبات الذات.

كان الغرب الإسلاميّ يخضع لسلطة النموذج المشرقيّ في الأدب، و كان المثقّف الأندلسيّ ينشأ على تقليد هذا النموذج. فكأنّ قدر عطائه انحصر في أن يكون معارضة للنموذج المشرقيّ ينسج على منواله في بنية النصّ ونوع الكتابة و عمود الكلام. وكأنّ الأدب الأندلسيّ محكوم عليه بالتبعيّة للمنوال المشرقيّ، لا مطمع له في منافسته أو في بلوغ شأوه. هذا التصوّر كان سائدا في الوسط الأندلسيّ في القرون الثلاثة الأولى، حتّى إنّ من حظي عندهم بالإعجاب لقبوه بلقب صنوه المشرقيّ. فنعتوا ابن درّاج القسطلّي (ت 1030/421) بمتنبّي الأندلس، وابن زيدون (ت 1070/463) ببحتري الأندلس، وابن خفاجة (ت 1138/533) بصنوبري الأندلس. وظهر ذلك حتّى في أسماء مدنهم، إذ استعيرت لبعض مدن هذا الوطن النائي أسماء مدن عربيّة مشرقيّة مثل استعارتهم اسم حمص لاشبيليا.

ثمّ تطوّر الواقع الفكريّ والأدبيّ بفضل ازدهار العلوم وانتعاش الآداب. فظهرت النزعة إلى تنسيب الأحكام المعياريّة وكسر القيود وإحلال الأندلس المنزلة التي تستحقّها و إبراز إضافتها وأحيانا ريادتها في شتّى الميادين بل وتقدّمها في الأطوارالتي ضعف فيها المدّ المشرقيّ. فصارت عاصمة الثقافة في زمن أضحى فيه الشرق بلا عواصم. وبرزت الشخصيّة الأندلسيّة وفرضت نفسها بما سعى إليه أدباؤها من العمل على إثبات الهويّة الأندلسيّة و التغلّب على عقدة مشرق / مغرب.

لهذه الأسباب اخترنا البحث في هذا الموضوع وقسّمنا عملنا قسمين:

- قسما أوّل نناقش فيه العقدة بين الشرق والغرب الإسلاميّين و مسعى أدباء الأندلس إلى تجاوزها والتغلّب عليها في نثرهم وشعرهم و في مشاريعهم الفكريّة التي تعكسها المقدّمات التي صدّروا بها مؤلّفاتهم.
- و قسما ثانيا ندرس فيه "كتاب البديع في وصف الربيع" لأبي الوليد الحميري[1] نموذجا نبرز من خلاله سمات الخصوصيّة الأندلسيّة .

قال ابن حزم (ت 1063/456) من مطوّلة له في الفخر[الطويل] :

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةً ولكنّ عيبي أنّ مطلعيَ الغربُ
ولوانّه من جانب الشرق طالع لجدّ على ما ضاع من ذكريَ النهب
فكم قائل أغفلته وهو حاضر وأطلب ما عنه تجيء به الكتب
هنالك يُدرى أنّ للبعد قصّةٌ وأ نّ فساد العلم آفته القرب

و قال ابن رشيق (ت 1063/456 أو 1070/463)- في معرض حديثه عن الموارد في الشعر- " أمّا أبو الحسن التهامي[2] رحمه الله فكثيرا ما أورده حتّى أتهم نفسي فيما أعلم و يعلم الناس أنّي قد سبقته إليه علم ضرورة ويحصره التاريخ، إلاّ أنّ للشرق فضيلة و مزيّة "("قراضة الذهب في نقد أشعار العرب"، تحقيق الشاذلي بو يحيى، تونس1972،ص63).

استوقفتنا أبيات ابن حزم، أحد أساطين الفكر و الأدب بأندلس القرن الخامس للهجرة والبيت الأوّل منها على وجه الخصوص، و قولة ابن رشيق وهو بإفريقية من أكبر أعلام القرن الخامس أيضا، لأنّ هذه الأبيات خيرما يصوّرعقدة الغرب إزاء الشرق. فالعالم المغربيّ مستنقص بالقياس إلى نظيره المشرقيّ لا من المشارقة وحدهم بل كذلك من المغاربة بني قومه و حتّى من نفسه، و عبارة ابن رشيق أحسن دليل على ذلك.

أمّا بيت ابن حزم:

أنا الشمس في جوّ العلوم منيرةً و لكنّ عيبي أنّ مطلعيَ الغربُ

[1] تحقيق هنري بيريس، الرباط 1940.

[2] شاعر من تهامة عاش بين الشام والعراق ومصر(ت1025/416)، لم يحفظ له التاريخ سوى 168بيت(ابن رشيق، قراضة الذهب،ص63).

فقد ورد في صلب القصيدة و لكنّه شكّل بيت القصيد و محوره حتّى إنّ أصحاب التراجم لم يذكروا من هذه القصيدة إلّا القسم الذي يبدأ به[3]. و إذا تأمّلنا فيه تبيّن لنا أنّ عمق الدلالة و بلاغة الصورة تكمنان في ما تحدثه المقابلة بين الصدر والعجز من صدمة في نفس المتلقّي ناتجة عن قلب الحقيقة و عكس الاتجاه. لكأنّ هذه الشمس المشرقة التي تنير جوَّ العلوم قد ضلّت سبيلها أو أخطأت مطلعها فعُكس مصدرها وساء منقلبها و أصابها الكساد حتّى تحوّلت محاسنها عيوبا و نورها ظلاما.

هذا التخييل أحسن ترجمان عن عقدة التمزّق بين المشرق والمغرب. وهي عقدة ذات بعدين واتجاهين : استنقاص المشارقة للمغاربة مقابل احتفاء المغاربة بكلّ ما هو مشرقيّ بل و استنقاص المغاربة ذاتهم لما يصدر عنهم، ممّا أخمل ذكرهم و تسبّب في إهمال آثارهم و حكم عليهم بالتهميش.

لهذه العقدة أسباب جغرافيّة تاريخيّة. تتمثّل جغرافيّا في البعد عن مركز الحضارة العربيّة الإسلاميّة، وتتجلّى تاريخيّا في تأخّر انضواء الأندلس تحت راية الإسلام بما يقارب القرن- تمّ فتح الأندلس فيما بين(92 و94/ 711و713) - وهو الفارق الزمني في تفاوت الحضارة بين القطرين.

لخّصت أبيات ابن حزم ما يشعر به الأديب الأندلسيّ من الغبن و الظلم وهذا المعنى تعكسه أيضا قولة ابن رشيق المفعمة حسرة ومرارة: " إلاّ أنّ للشرق فضيلة و مزية ".

فهو، رغم يقينه، يقينا تزيده الحجّة التاريخيّة تأكيدا، لا يملك إلاّ أن يتّهم نفسه إزاء نظيره، لا لشيء إلاّ لأنّه مغربيّ و الآخر مشرقيّ.

وقد انعكس هذا الإحساس ذاته في البيت الأخير:

هنالك يُدرَى أنّ للبعد قصّةٌ وأنّ فسادَ العلم آفته القربُ

في هذين الشطرين شخّص ابن حزم العلّة و حدّد مصدر الدّاء. و لذلك فاضت مشاعر الألم والحسرة في نفس كلّ من الأديبين، فصدحا بهذه العبارات الّتي لها من اكتناز اللفظ وبعد المرمى ما يجعلها جوامع كَلِم، لها قانون الأمثال و الحكَم.

طالما اشتكى أعلام الأندلس من البعد و الغربة منذ العهود الأولى إلى سقوط غرناطة. على أنّ هذا الإحساس بالبعد، لئن تولّدت منه في العهود الأخيرة، نجديّات مفعمة شوقا و حنينا إلى البقاع المقدّسة، أرض الجذور ومهبط الوحي، فقد وظّفت غير هذا التوظيف في عهود القوّة والازدهار الّتي امتدّت على ثلاثة قرون من الرابع/ العاشر إلى السادس/ الثاني عشر. وهي قرون زاخرة بالأعلام في مختلف ميادين المعرفة من علوم الدين إلى علوم اللغة إلى العلوم العقليّة من فلك و رياضيّات و هندسة و طبّ وفلسفة، و في الأدب بفرعيه: الشعر والنثر. و خير دليل على ذلك كتب المختارات و كتب التراجم، فهي تعجّ بأسماء الأعلام و عناوين الآثار و المختار من الأشعار، و إن لم يصل منها إلينا سوى النزر القليل.

لا بدّ في هذا الصدد من لفت النظر إلى أنّ الرائج المشهور بين الباحثين أنّ ازدهار الفكر و الأدب العربيّين بلغ أوجه مع نهاية القرن الرابع بالمشرق و سار بعد ذلك نحو الانحدار. فكانت منهم غفلة عن تحوّل مركز الثقافة من الشرق إلى الغرب الإسلاميّ، أو لعلّه سوء التأويل الّذي ذهبوا إليه في فهم مجال العروبة و الإسلام " من المحيط إلى الخليج "، فاعتبروا المحيط و الخليج حدّين خارجين عن المجال لا داخلين فيه، فضربوا صفحا عمّا كانت القيروان و قرطبة و إشبيليا و غيرها من عواصم إفريقية و الأندلس تزخر به من أدباء و علماء.

شهدت الحركة الفكرية والأدبية بالقيروان، فيما بين منتصف القرنين الرابع والخامس بالخصوص، نشاطا وازدهارا كبيرين بلغا أوجهما في ظلّ حكم المعزّ بن باديس (406- 454/ 1062-1016) و وزيره ابن أبي الرجال (ت 1034/426-35). وخلال هذين القرنين نبغ أشهر أعلام "مدرسة القيروان" في الأدب و في العلوم الدينيّة و النقليّة والعقليّة. بل إنّ ازدهار العلوم الدينيّة انطلق منذ القرن الثالث على يدي الإمام سحنون (ت854/240) و "مدوّنته" الكبرى في الفقه المالكي

[3] انظر القصيدة كاملة فيما حققه محمد الهادي الطرابلسي من شعر ابن حزم ونشره لأوّل مرّة، حوليّات الجامعة التونسية، عدد 9، 1972ص ص.151-176

وابن أبي زيد القيرواني (ت 996/386) الملقّب بـ"مالك الأصغر". و من أبرز أعلام مدرسة القيروان الأدبيّة أبوعبد

1- قال عبد الرحمان الداخل(138-172/756-788)، أول أمراء الدولة الأمويّة بالأندلس، وقد رأى نخلة معزولة في"منية الرصافة"{الكامل}:

يا نخلَ أنتِ غريبة مثلـــــــي في الغرب نائية عن الأصـــل

وقال لسان الدين بن الخطيب(ت776ه)، في مطلع قصيدة توجّه بها باسم السلطان إلى الضريح النبوي الكريم{ الطويل}:

دعاك بأقصى المغربين غريب وأنت على بعد المزارقريـــب

(الديوان، تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء 1989،ص.156) أو حين يكنّي عن الأندلس"بالثغرالغريب" أو "بالثغر النازح النائي".

الله القزّاز(ت 412/ 1021) و إبراهيم الحصري (ت 413/ 1022) و قد أدّى دورا كبيرا في ازدهار الأدب بالمغرب و الأندلس و أقرّ له ابن رشيق بالزعامة الأدبيّة و نوّه به ابن بسّام الشنتريني(ت 542/ 48-1147) في موسوعته الضخمة "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"(5)و تلاهما ابن رشيق و ابن شرف (ت 1070/463) والشاعر أبو الحسن علي الحُصْري القيرواني (ت 488/ 1095) صاحب قصيدة "يا ليل الصبّ " المشهورة و صاحب ديواني: "المعشّرات" و"اقتراح القريح و اجتراح الجريح"، و قد لقب إلى جانب ذلك بـ" الأستاذ الأعلى " في تدريس القرآن بالأندلس. أمّا في العلوم العقلية فلنا أن نذكر ابن الجزّار (ت 1004/395) في الطبّ و الصيدلة وابن أبي الرجال المذكور في الفلك و الرياضيّات وغيرهما.

و كان من نتائج ذلك أن حَوّل طلّاب العلم من أهل الأندلس وجهتهم من الشرق إلى القيروان إذ وجدوا فيها ضالّتهم في جميع فروع المعرفة لذلك العهد. و بعد محنة القيروان انتقل المشعل إلى الأندلس حيث انطلقت الحركة الفكريّة و الأدبيّة في القرن الرابع في ظلّ الدولة الأمويّة و بلغت أوجها في القرنين الخامس و السادس. فالأندلس، رغم هشاشة وضعها السياسي منذ سقوط الخلافة، عرفت ازدهارا فكريّا و أدبيّا لم يخبُ بريقه إلّا في القرن السابع، ليبعث من جديد - وإن في بريق أقلّ لمعانا - في القرن الثامن. والأعلام الذين برزوا فيها طيلة هذه القرون أكثر من أن يشملهم حصر.

مرّت الثقافة العربيّة بمنعطف إذن، تمثّل في تحوّل مركز الثقافة العربيّة في مطلع القرن الخامس من المشرق، حيث مثّل القرن الرابع قمّة الازدهار، إلى الغرب الإسلاميّ الّذي انطلقت نهضته إذّاك. هذه النهضة، لئن أخمدت إخمادا بالقيروان إثر الزحف الهلاليّ، فقد استمرّت بالأندلس مورقة مزهرة طيلة تلك القرون.

و سننظر في هذه الورقة في كيفية تصدّي أدباء الأندلس لهذه العقدة و نتوقف عند الآثار التي ضمّنوها موقفهم من هذه القضيّة متأمّلين في مدى نجاحهم في إثبات الهويّة الأندلسيّة ورسم ملامح شخصيّة أندلسيّة مستقلة.

تمثّل كتب المختارات و الموسوعات الأدبيّة أبرز المؤلّفات الّتي تصدّى فيها أدباء الأندلس لمعالجة هذه العقدة، فكان بعضها بمثابة " دساتير" الشخصيّة الأندلسيّة. و قد أقبلوا على تأليفها منذ أواسط القرن الرابع، مقتصرين فيما ينتقون على إنتاج الأندلسيّين دون سواهم، معبّرين عن فخرهم بثمرة ألباب أهل بلدهم، مؤكّدين ذلك في ديباجات كتبهم حتّى كانت مداخلهم هذه بمثابة "بيانات" في القوميّة الأندلسيّة (الشادلي بويحيى "ابن شهيد الأندلسي، حياته، شعره ونثره، رسالة التوابع و الزوابع" تونس، 1993ص17).

لعلّ أوّل هذه المختارات "كتاب الحدائق" لأبي عمر بن فرج الجيّاني (ت بين360 و970/366- 976) .عارض به "كتاب الزهرة" لأبي بكر بن داود الأصفهاني (ت 907/294). قال عنه الحميدي(ت 488/ 1095) في كتابه "جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس" (Iج ، الترجمة 176) : " إلّا أنّ أبا بكر بن داود إنّما أدخل مائة باب في كلّ باب مائة بيت، و أبو عمر أورد مائتي باب في كلّ باب مائتا بيت(...) و لم يورد لغير أندلسي شيئا. و أحسن الاختيار ما شاء و أجاد فبلغ الغاية و أتى الكتاب فردا في معناه " والكتاب مفقود لا نعرفه إلّا من خلال ما وصف به و ما انتخب منه في كتب المختارات.

انصبّ اهتمام ابن فرج الجيّاني في كتابه هذا على الرواية لأهل عصره من الأندلسيّين دون غيرهم. وجاراه في ذلك أبو الوليد الحميريّ (ت 440/1048-49) في كتابه "البديع في وصف الربيع" وبعدهما ابن بسّام في موسوعته الضخمة "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"(5).

يعدّ كتاب الحدائق من أهمّ مصادر الأدب الأندلسيّ حتّى عهد الحكم المستنصر (350-366/ 961-976) وهو في نظرنا من المصادر الأولى التي ظهرت فيها ملامح الوعي بالشخصيّة الأندلسيّة بما تجلّى فيها من إقبال الأدباء على آثار بني وطنهم: يخصّونها بالجمع و الانتقاء، و من خلال اهتمامهم بالإعلاء من شان بلادهم وإبراز محاسنها و الإشادة بفضائل رجالها من علماء و أدباء و شعراء. لاسيّما أنّ إقبال أهل الأندلس على الشعر و الأدب بدأ منذ عهود مبكّرة و في عهد الإمارة المروانيّة على وجه الخصوص. فقد عمل الأمير عبد الرحمان الثاني(الأوسط)، وكان أديبا شاعرا على جلب أهمّ ما ألّف و ترجم في بغداد من كتب و أجزل العطاء للعلماء والأدباء و أكرم من وفد عليه من علماء المشرق أحسن إكرام. ساهم ذلك إلى جانب غيره من العوامل في تنشيط الحركة الأدبيّة و ظهور العديد من الشعراء و الأدباء. ذكر هنري بيريس محقّق "البديع" ثلاثة مصنّفات أخرى سابقة لهذا الكتاب، لم يبق منها سوى عناوينها. وهي "طبقات الشعراء بالأندلس" لعثمان بن ربيعة (ت حوالي 922/310) و "أخبار الشعراء بالأندلس" لأبي بكر بن سعيد الخير المرواني(ت951/340) و "كتاب في أشعار الخلفاء من بني أميّة" لأبي محمّد بن مغيث، ألّفه بطلب من الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله حوالي 963/352 ينافس به كتاب "الأوراق في أخبارالعرب وأشعارهم لأبي العبّاس الصولي". (مقدّمة التحقيق) على أنّ هذه المصنّفات تعدّ حسب عناوينها من كتب الطبقات لا من كتب الاختيارات.

أمّا كتاب "البديع في وصف الربيع" فيمكن اعتباره مواصلة لكتاب الحدائق. ذلك أنّ الحميريّ قد جارى فيه ابن فرج الجيّانيّ لا في الاكتفاء بآثار الأندلسيّين واختصاصها بالتدوين دون غيرها بل كذلك في موضوع كتابه إذ اختصّه بما قيل في وصف الربيع وأزهاره دون غيره من الموصوفات. و الروضيّات و النوريّات - كما هو معلوم - من أقرب الموصوفات إلى نفس الأندلسيّ فهو لا يني يصفها و يشيد بها في شعره ونثره .

لا نطيل الوقوف عند هذا المصنّف ما دمنا سنخصه بالقسم الثاني من بحثنا هذا.

"الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" تحقيق إحسان عبّاس، دارالثقافة، بيروت، لبنان 1997.

هذا الوعي بالذّات الأندلسيّة و الشخصيّة القوميّة و الإحساس عند أدباء الأندلس بضرورة الإقبال على آثار أدبائهم: نظمها و نثرها، إن لم يكن بالجمع فبالانتقاء والتخيّر، حفظا لها من التلف والاندثار، واعتزازا بها ومباهاة لأهل المشرق، هذا الوعي ظهر إذن منذ عهد مبكّر. ولعلّه بلغ الذروة في القرن السادس مع ابن بسّام في مقدّمته الشهيرة لكتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" . و العنوان ذاته يمثّل برنامجا كاملا و يعلن عن مقاصد صاحبه و غيرته على الكنوز التي جادت بها قرائح بني وطنه، فانبرى يلمّ شتاتها و يخلّد ثمراتها. وفي ذلك يقول: " على أنّ عامّة من ذكرته في هذا الديوان لم أجد له أخبارا موضوعة ولا أشعارا مجموعة تفسح لي في طريق الاختيار منها. " بل ما تيسر له الوقوف عليه كان " تفاريق كالقرون الخالية، و تعاليق كالأطلال البالية، بخطّ جهّال كخطوط الرّاح، أو مدارج النمل بين مهبّ الرياح "(الذخيرة، ص12).

وقد جاءت مقدّمة الكتاب هذه كالبركان المحتدم تقحم القارئ من الوهلة الأولى في جوّ تلك الأحاسيس الحادّة المتضاربة التي كانت تضطرم في نفوس الأندلسيّين لذلك العهد. أحاسيس الانجذاب إلى كلّ ما يأتي من المشرق من ناحية و شعور الاعتزاز بالانتماء الأندلسي والفخر بالأندلس وأبنائها من ناحية أخرى. إلّا أنّ الإحساس الأوّل كثيرا ما كان يطغى على الثاني. فكما قال ابن حزم:

هنالك يُدرى أنّ للبعد قصّة و أنّ فساد العلم آفته القرب

ذلك ما أثار حفيظة ابن بسّام وأشعل حنقه على قومه لقلّة اكتراثهم بالنوابغ من أهل بلدهم و تضييعهم أعمال أعلامهم مقابل تقديسهم لأعلام المشرق وتمجيدهم لكلّ ما يصدر عنهم مهما كان تافها باهتا. فإذا به يندفع مستهزئا بأهل عصره قائلا: " حتّى لو نعق بتلك الآفاق غراب أو طنّ بأقصى الشام و العراق ذباب لجثوا على هذا صنما وتلوا ذاك كتابا محكما." و ممّا حزّ في نفسه وزاده مرارة أمام هذا الموقف أنّ الأندلس لعهده و قبل عهده تزخر بالعلماء و الأدباء في شتّى العلوم والفنون. يقول:" و ما زال في أفقنا هذا الأندلسي القصيّ

إلى وقتنا هذا من فرسان الفنّين و أئمّة النوعين قوم هم ما هم: طيب مكاسر، وصفاء جواهر، و عذوبة موارد و مصادر. "

إنّ عبارة " أفقنا الأندلسيّ القصيّ " تحمل ما تحمل من المعاني والأحاسيس المتناقضة. فهي تترجم شعور ابن بسّام بالألم لما كان لأهل الأندلس من قسمة التوطّن بأرض نائية، معزولة عن مركز العروبة و الإسلام. البحر وراءها و الروم أمامها. وقد سبق أن أشرنا إلى ما كان لهذا البعد من عميق الأثر في نفس الأندلسيّ منذ عهود الفتح الأولى. لكنّها تُعرب في نفس الوقت عن الاعتزاز بشرف الانتماء إلى ذلك الأفق / الوطن. و الأفق كناية عن المكان البعيد السحيق.

على أنّ هذه الإعاقة المكانيّة لم تحل دون الأندلسيّ ودون السبق و التألّق. بل لكأنّ هذا البعد زاده حماسة ورغبة في التفوّق. فقد جاد هذا" الأفق القصيّ "بـ" فرسان الفنّين " الشعر و النثر. و يسترسل ابن بسّام في هذا المنحى مفضّلا أعلام الأندلس و أعمالهم على المشارقة و آثارهم في جميع فنون القول، زاعما أنّهم قد تفوّقوا على الرموز المشرقية و أطاحوا بها. وهو يعبّر عن ذلك في جمل قصار و صور بليغة و عبارات موجزة، تماثل في المبنى و المعنى جوامع الكلم، يقول: " فصبّوا على قوالب النجوم غرائب المنثور والمنظوم، و باهوا غرر الضحى والأصائل بعجائب الأشعار والرسائل: نثر لو رآه البديع (هو بديع الزمان الهمذاني، ت 1008/398) لنسي اسمه، أو اجتلاه ابن(كذا) هلال (لعلّه يقصد أبا هلال العسكري، ت بعد 1010/400) لولاه حكمه، ونظم لو سمعه كثيّر(كثيّر عزّة ت 723/105) ما نسب و لا مدح، أو تتبّعه جرول (الحطيئة) ما عوى ولا نبح".

وممّا يضاعف ألم صاحب الذخيرة أنّ " أهل هذا الأفق " كما يسمّيهم كانوا قاصرين عن إدراك قيمة أعلامهم، فأهملوهم و تجاهلوهم و بقوا يلهثون وراء الأدب المشرقيّ المردّد المكرور يجترّونه اجترارا. يقول: " و أبوا إلّا متابعة أهل المشرق يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قتادة. "

حفّز ذلك همّته إلى جمع تلك الكنوز و المحاسن قبل أن يمحوها الزمان ويأتي عليها تعاقب الحدثان: " غيرة لهذا الأفق الغريب أن تعود بدوره أهلّة و تصبح بحاره ثمادا مضمحلّة ". تعود عبارة الأفق/ الوطن من جديد مقترنة بصفة تعمّق نأيه وتؤكّد عزلته، فهو غريب بين الأغراب، اقتلع من جذوره وانتزع من أصوله. فبقي أهله متذبذبين بين أرضين ووطنين: يبرّح بهم الشوق إلى أرض الجدود والجذور و يشدّهم حبّ الوطن إلى الأندلس أرض المنشإ والمستقرّ.

هكذا كان التمزّق بين مكانين و زمانين من أشدّ ما أضرّ بالأندلسيّ. كما كان الإحساس بالغربة و القطيعة ممّا عذّبه ونغّص عليه استساغة ثمرة فكره و استحسان إنتاج رجالات وطنه. فمني كلّ ما هو أندلسي بالتهميش والاستنقاص حتّى أضحت بدوره أهلّة، فكأنّها بدور في غير مكانها المناسب و لا زمانها الملائم. و الحال أنّها بدور على التحقيق.

لعلّ ما يكمن وراء هذه الثورة العارمة على سلطة الأنموذج عند ابن حزم و ابن بسّام و غيرهما يقين الجماعة بأنّ العلم لا جنسية له، و لا وطن أولى به من وطن، و أنّ الإبداع لا يعرف الحدود الجغرافية ولا يخضع للقيود السلطويّة. إذ " الإحسان غير محصور و ليس على زمن بمقصور."

تعتبر هذه الديباجة - في نظرنا – " دستور " الشخصية الأندلسية، سعى فيها ابن بسّام وإن في كثير من الحدّة وشيء من المبالغة إلى إثبات استقلاليّة الهويّة الأندلسيّة وتمرّدها على سلطة الأنموذج المشرقيّ. يؤيّد ذلك ما حوته موسوعته " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " من روائع أندلسية في فنّي المنظوم والمنثور.

لئن بلغت هذه النزعة عند ابن بسّام حدّ الثورة والاحتدام، فهي عند الحميريّ، سلفه، متأكّدة و لكن في رصانة واتّزان. و سنسعى إلى إبراز ذالك من خلال دراستنا كتاب الحميريّ و ديباجته و تحليل نماذج من مختاراته.

"البديع في وصف الربيع" لأبي الوليد الحميريّ، صورةٌ أندلسية

أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الحميري من مواليد إشبيلية و بها توفّي وهو ابن اثنتين و عشرين سنة. قال عنه ابن بسّام في الذخيرة: " كان سديد سهم المقال، بعيد شأو الرويّة والارتجال، و الأديب أبو جعفر

بن الأبّار هوالذي أقام قناته، وصقل مرآته، فأطلعه شهابا ثاقبا، و سلك به إلى فنون الأدب طريقا لاحبا. و لو تخطّاه صرف الدهر، وامتدّ به قليلا طلق العمر، لسدّ طريق الصباح، وغبّر في وجوه الرياح. "(الذخيرة، القسم2، المجلّد1، ص125 أمّا ابن الأبّار(ت 1260/658) فقال عنه، نقلا عن الحميديّ: " كان آية في الذكاء و الفهم و البلاغة و تجويد الشعر على حداثة سنّه " ("التكملة لكتاب الصلة"، الترجمة عدد474 ط. الجزائر، 1920).

اخترنا هذا الكتاب نموذجا نبرز من خلاله سعي أدباء الأندلس إلى إثبات الشخصيّة الأدبية الأندلسية و حرصهم على تأكيد استقلاليتهم إزاء الأدب المشرقي، لأنّه – على حدّ علمنا – لم يحظ بالدرس مع أنّه محقّق منشور منذ أواسط القرن المنصرم . فكأنّه لم يلفت اهتمام الدارسين، أو لعلّهم أعرضوا عنه لأنّ صاحبه ليس من مشاهير أدباء الأندلس فموته المبكّر حال دونه و دون المزيد من المؤلّفات التي ربّما كانت تبوّئه مكانة مرموقة بين نظرائه . وقد يكون مردّ ذلك إلى صغر حجم الكتاب أو عدم احتوائه على أسماء أعلام معروفة مشهورة . و نحن نعدّ كتاب " البديع في وصف الربيع " من المصنّفات الأندلسية الهامة لثلاثة أسباب . أوّلها أنّه من أقدم ما وصل إلينا من كتب الاختيارات لا سيّما أنّ عددا من نصوصه وردت كاملة، إذ ألّف في مستهلّ القرن الخامس/الحادي عشر. وثانيها منهجه المحكم الّذي يدلّ على ما تحلّى به الحميريّ من نضج فكريّ و حسّ نقديّ دقيق . وثالثها ما تميّزت به مختارات الكتاب من مستوى إبداعيّ عال دلّ على نبوغ أدباء الأندلس منذ أواخر القرن الرابع، كما برهن من المؤلّف على ذوق رفيع و دراية واسعة بفنون الأدب . وسنعمل على إبراز ذلك في هذا القسم من بحثنا .

أمّا الكتاب فهو اختيارات من الشعر و النثر الأندلسيَّين- مع غلبة الشعر فيه- تلتقي حول محور دقيق مختصّ هو وصف الربيع وأزهاره. اشتمل على 203صفحة و احتوى الأصل منه على161صفحة. يعتبر أقدم مؤلّف من هذا الصنف حفظه الزمان ووصل إلينا كاملا. ذكر ابن بسّام كتاب الحميريّ بصيغة أخرى إذ قال:"له كتاب سمّاه بالبديع في فصل الربيع " (م.ن) . و قال ابن الأبّار:" و له في فصل الربيع تأليف ترجمه بالبديع. أفاد به و لم يورد فيه لغير شعراء الأندلس شيئا."(م.ن). إلّا أنّ الحميري استعمل كلمة"وصف" في العنوان و كذلك في غضون الكتاب إذ يقول مثلا:"و من البديع في وصف الربيع ما جاء به أبو عمر يوسف بن هارون الرماديّ..."(ص9).

صدّر المؤلّف كتابه بديباجة(ص.ص.1-4) أردفها بقسم ثان اشتمل على صفحة واحدة بعنوان:"باب ما جاء في الربيع والأنوار من البديع المختار"(ص5) ذكر فيه عناوين الفصول وحدّد منهجه في ترتيب النصوص . أمّا الديباجة فقد بيّن فيها دواعي اهتمامه بهذا الموضوع الدقيق مبرّرا ذلك بسعيه إلى الابتعاد عن المسالك المطروقة وحرصه على الإتيان بالجديد الطريف . يقول: "إنّ أحقّ الأشياء بالتأليف وأولاها بالتصنيف، ما غفل عنه المؤلّفون، ولم يُعنَ به المصنّفون، ممّا تأنس النفوس إليه، و تلقاه بالحرص عليه" (ص1)، ويضيف معلّلا اختياره لوصف الربيع بقوله: "وفصل الربيع آرج و أبهج، وآنس وأنفس، وأبدع وأرفع من أن أحدّ حسن ذاته، وأعدّ بديع صفاته(...)وهو مع هذه الصفات الرائقة، والسمات الشائقة، والآلات الفائقة، لم يعن بتأليفه أحد، ولا انفرد بتصنيفه منفرد" . ثمّ حدّد منهجه في الاختيار وكيفية تعامله مع النصوص، ذاكرا عزمه على إهمال أشعار المشرق" فقد كثر الوقوف عليها، والنظر إليها، حتّى ما تميل إليها النفوس، ولا يروقها منها العلق النفيس ويزيد قائلا: "مع أنّي أستغني عنها، ولا أحوج إليها، بما أذكره للأندلسيّين من النثر المبتدع، والنظم المخترع، وأكثر ذلك لأهل عصري إذ لم تغب نوادرهم عن ذكري" (ص.2) (6) . شملت اختياراته إذن الشعر والنثر و جلّها لأهل عصره. ولعلّه يعني بذلك- كما تثبته اختياراته – أدباء القرن الرابع و بداية الخامس للهجرة، محدّدا سبب اقتصاره على أهل عصره بقوله: "وأمّا من بعد عصره، و كم فيهم من جليل قدره، فقلّما أوردت لهم شيئا للعلّة التي تقدّم ذكري لها من إهمالها و تضييعها."

ختم الحميري ديباجة كتابه بالدعاء لصاحب إشبيلية القاضي عبّاد محمد بن إسماعيل، مؤسّس الدولة العبّاديّة بها وإلى ابنه الذي اتّخذ فيما بعد لقب المعتضد، وإليهما أهدى مصنّفه(7).

قُسّم الكتاب إلى ثلاثة فصول متفاوتة الطول: الأوّل قصير والثاني ضعفه و الثالث في حجم الثاني تقريبا.

-الفصل الأوّل :القطع في الربيع التي لم يسمّ فيها نوْر ولا قصد بوصفها منه نوع.

-الفصل الثاني :القطع التي لم تتفرّد بوصف نوْر بل اشتملت على وصف نوْرين أو أنوار.

-الفصل الثالث في القطع المنفردة كلّ واحدة منها بنوْر على حدة.

خضع كتاب البديع "في وصف الربيع" لمنهج في التأليف محكم يكاد يذكّرنا بالبحوث المعاصرة: حدّد المؤلّف أبرز خطوطه في الديباجة بقسميها كما تقدّم بيانه، وبقي حريصا، طيلة فصول الكتاب، على التقيّد بهذه الخطوط لا يحيد عنها.

رتّب الحميريّ كتابه إذن حسب الموضوعات كما دلّت على ذلك فصوله، وبرّر ترتيبه هذا بقوله:"من الصواب في الدواوين و الحذق في التواليف أن يضاف المثل إلى مثله، و يقرن الشكل بشكله، فيقصد الطالب أيّ معنى شاء فيجد مقصده، و يعتمد القارئ أيّ فصل أراد فيلقى معتمده."(ص5) وجاءت معظم الاختيارات الشعريّة قطعا مقتطفة في أغلب الأحيان من قصائد كاملة يجتزئ منها المؤلّف ما

1- لعلّ الجملة الأخيرة جعلت محقّق الكتاب يتوهّم أنّالحِمْيَري اقتصر على الانتخاب لشعراء إشبيلية دون غيرهم، في حين أنّنا وجدنا خلاف ذلك.

2- كان الحميري من وزراء القاضي عبّاد.

يتّصل بموضوع كتابه.يقول في مواطن عدّة:"ومن البديع في وصف الربيع ما جاء به أبو عمر يوسف بن هارون الرماديّ في قصيد يمدح به الوزير ابن بلشّر فقال بعد صدر منه"(ص9) أو:"والقطعة بعد صدر من القصيد"(ص10)، أو كذلك:"وللوزير أبي عامر بن شهيد(...)قصيد يمدح به سليمان المستعين بالله(...)وفيه قطعة عجيبة في نواوير عدّة"(ص35).وقد يورد القصائد كاملة إذا كانت بأكملها تهمّ الموضوع. فأورد قصيدا كاملا لأبي عثمان سعيد بن فرج الجيانيّ (هوغيرأبي عمرأحمد بن فرج الجيّاني صاحب "الحدائق")في تفضيل الورد على البهار، يردّ به على قصيد لابن الروميّ (ت283/896) فضّل فيه البهارعلى الورد، وهي معارضة. وثنّى بمعارضة لأبي بكر بن القوطيّة لنفس القصيد، و كلاهما من معاصريّ الحميريّ. ويشير عندها إلى أنّ القصيد كامل. يقول:"وهومن أوّله إلى آخره..."(ص70وص73).

فليس الكتاب مجرّد اختيارات بل هو في مقام مدوّنة أدبيّة انتقاها صاحبها من المصادر الأندلسية لإنجاز عمل علميّ.

خضع الفصلان، الأوّل والثاني للترتيب التاريخيّ زيادة على الترتيب حسب الموضوعات. فبدأ المؤلّف بأقدم القطع زمنا مستهلّا الفصل الأوّل بقطعة لابن عبد ربّه(ت328/940)، مثنّيا بقطعتين لابن فرج الجيّاني صاحب"الحدائق"(ص6و7). و كانت أولى القطع في الفصل الثاني لأمير أمويّ والثانية لابن عبد ربّه والثالثة قطعة نثريّة لأديب يدعى ابن قنبيل(8). كما روى قطعة لجعفر المصحفيّ حاجب الخليفة الأمويّ الثاني الحكم المستنصر(350-366/961- 976)وقطعة لابن هانئ الأندلسيّ(ت362/973)من شعره المغربيّ(9) و قطعا أخرى منها قطعة لابن شهيد(ت 426/1035). أمّا معاصروه فكثيرا ما يأخذ عنهم مشافهة أو من رسائل شعريّة ونثريّة يتبادلونها.

كانت نصوص الفصل الأوّل من صنف الروضيّات إذ تضمّنت وصف الرياض عموما. ومن ذلك قول أبي عمر بن فرج الجيّانيّ، ص6، [الكامل]:

أمّا الربيع فقد أراك حدائقا لبست بها الأيّام وشيا رائقا
فكأنّما تجترّ أذيال الصبا فيها البروق أزاهرا وشقائقا
متقسّمات بينها وسم الهوى تحكي المشوّق تارة والشّائقا

وكثيرا ما يتخلّل وصف الرياض وصف الأنواء والرعود والبروق من مثل قول الرماديّ، ص11، [الكامل]:

بكت السحاب على الرياض فحسّنت منها عروسا من دموع ثكول

1- لم يعرّفه المحقق ولم نعثر له على ترجمة.
2- من المعروف عند الباحثين أنّ شعر الحقبة الأندلسية لابن هاني ضاع بأكمله، وهذا كتاب "البديع" يؤكّد ذلك.

فكأنّها و الطلّ يُشرق فوقها وشْيٌ يحاك بلؤلؤ مفصول
غلبت على شمس النهار فألبست منها ظهيرتها ثياب أصيل

و من نصوص الفصل الثاني قول الوزير أبي عامر بن مسلمة من قطعة "تضمّنت من التشبيهات غريبها ومن الصفات عجيبها"، ص38، [الرجز]:

وروضة مشرقة بكلّ نور مجتنى
فيها بهار بـا هر ونرجس يشكو الضنى
و ياسمين أرضه و نوره تلوّنا
كالليل مخضرّا ولكنْ بالنجوم زيّنا

ورتّب الفصل الثالث وهوذو"القطع المنفردة، كلّ قطعة بنوْرعلى حدة"، حسب زمن ظهور الأزهارخلال السنة. يقول:"يجب أن نبدأ بأوّل الأنوار، وأبكر الأزهار، وهو من النواوير الربيعيّة نوْر البهار، "ثمّ يستدرك قائلا:"ولكن ما كان من النواوير باقيا، في كلّ وقت وثاويا، مع كلّ فصل هو أوّل على الحقيقة، وصدر في هذه الطريقة، كالآس والياسمين" لذلك استهلّ الفصل بالآس فالياسمين ثمّ عاد إلى الترتيب الزمنيّ. ويسترسل في استعراض الأشعار الواصفة لكلّ زهرة من الأزهار. وإذا بالفصل يتحوّل إلى ثبت بأزاهير الحديقة الأندلسيّة من الآس والياسمين والبهار إلى البنفسج و الخيري النمّام و النرجس الأصفر إلى الورد والسوسن و الخرّم وغيرها من نيلوفر وأقحوان وشقائق النعمان.ويتغنّى أهل الأندلس كذلك بزهر الخضر والثمار كالباقلّاء وزهر الكتّان ونوْر اللوز وزهر الرمّان وهم كثيرو الشغف بالجلنار(=زهر الرمّان البريّ).

على أنّنا نلاحظ مع محقّق الكتاب، غياب أزهار مثل زهر الريحان (10) وزهر البرتقال و القرنفل والخزامى وزهر الدفلة و الحبق والنعناع والنسرين. وجميعها من الأزاهير والرياحين المتوسطيّة.

ومن خصائص منهج الاختيار عند أبي الوليد أيضا، حرصه على انتقاء أجود ما بلغه من أشعار مبرهنا على ذوق أدبيّ رفيع. وقديما قيل"اختيار المرء قطعة من عقله".يقول:"وتأمّل أيّها الناظر في كتابي تأمّل اليقظ المتّقد، والمميّز المنتقد، تر أغرب التشبيهات، وأعجب الصفات، وأبرع الأبيات، وأبدع الكلمات"(ص3).

يتجلّى إحكام المنهج إذن في ضبطه مقاييس الاختيار التي أخضع لها مختارات كتابه من ناحية والتزامه بهذه المقاييس طيلة الكتاب لا يحيد عنها إلّا إذا دعته الضرورة إلى ذلك فينبّه إليه في موضعه.ورد ذلك في مواطن من الكتاب.يقول مثلا(ص8) بعد فقرة أوردها من رسالة في الدعوة إلى مجلس شراب وسط
1- على أنّ "قصرالحمراء" بغرناطة ما زال إلى اليوم يشتمل على بهوتصطفّ أشجار الريحان على جنباته، وكان شعراء القرنين الثامن والتاسع للهجرة يسمّونه "بهو الريحان".
الرياض تضمّنت وصف الروضة وختمت بوصف الكؤوس و التعبير عن الشوق إلى المخاطب:"في آخر هذه من وصف الكؤوس، وسرور النفوس، بمن خوطب فيها وكوتب بها ما لم أعد به ولا قصدت قصد ذكره لكنّي لو فصلته منها لأخللت بها. فمن الأشياء أشياء يزداد حسنها بما وصلت به، وقرنت معه، وربّما أنّ في كتابي مثل هذا.فمن رآه فليعلم أنّي إنّما أسعى في استكمال الحديث و استيعاب الخبر لئلّا أخلّ بما ابتدئ به بالنقص منه." أو قوله(ص23) معقّبا على قطعة نثريّة لابن برد الأصغر:"وبعد هذا وقبله من المعاني الطريفة والنوادر الظريفة ما يحلّ من الأسماع محلّ السماع ويجري على الأفواه مجرى الأمواه ولكنّها ليست ممّا قصدت إلى جمعه ولا عنيت بذكره."

وفي الفصل الثاني الخاصّ بوصف نوْرين أوأكثر، أورد قطعة للقاضي عبّاد وصف فيها الأقحوان وحده، وذلك ضمن مجموعة ضاديّات وصف فيها أصحابها الربيع وأزهاره وعارض بها أحدهم الآخر. ولمّا كانت قطعة القاضي في نوْر واحد مع كونها تعارض القطع الأخرى رأى من اللازم إيرادها أيضا مع التنبيه إلى مخالفتها للقطع الأخرى، يقول:"وهذه القطعة كان يجب أن تكون في باب القطع المنفردة لأنّها في الأقاحي على حدة. لكنّي لو فصلتها من الشعر الذي اتصلت به والمعنى الذي وقعت فيه لكنت مفرّقا بين الطرف وحوره، والخدّ وخفره."(ص48)

هذه الدقة وهذا الحرص على البقاء في حدود المنهج الذي بنى عليه عمله في الاختيار، وهذا الالتزام بما اشترطه المؤلّف على نفسه عوامل تنمّ جميعها عن وعي عميق بأهمّية المنهج في التأليف وحرص على إحكامه ووفاء لشروطه ممّا يدلّ على اتّجاه علميّ في التأليف التزم به قبل أن يصبح من قواعد البحث العلميّ إذ أنّ الكتاب ألّف في بداية القرن الخامس للهجرة، والكتاب، على ما نعلم، أوّل مصنّفات الحميريّ، ولعلّه آخرها أيضا.

من خصائص منهج التأليف أيضا تعقيب المؤلّف على النصوص المنتقاة بالشروح المعجميّة للغريب المشكل من الألفاظ وتوضيح ما يبدو له معقّدا من المعاني والتعليق على الصور من تشبيه واستعارة ومجاز وما إليها، و قد أشار إلى ما فيها من مواطن الإبداع وحسن الاختراع. ولا يغفل عن التنبيه إلى ما قد تتضمّنه بعض الأبيات من الضعف أو السقوط أو عقم التشبيه(ص33). وتعاليقه لا تخلو من لمحات نقديّة وعبارات لها صبغة المصطلحات النقديّة في معنى النقد الانطباعيّ، ولكن منها ما كان دقيقا بعيدا عن الانطباعيّة لما فيه من تحليل موضوعيّ وتبرير بالحجّة والدليل مثل نقده للبيتين التاليين، من قطعة لأبي عبد الملك الطليق[الرمل]:

وكأنّ الورد يعلـــــوه الندى وجنة المعشوق تندى عرقَـا
يتفقّى عن بهار فـــــــاقـع خلتَه بالورد يطوي وَمَقـــا

حيث يقول:"تشبيه الورد بوجنة المعشوق كثير إلّا أنّه أعرب بزيادة الندى ومقابلته بالعرق".
و من لمحاته النقديّة الموفّقة أيضا تعليقه على وصف البهار لأبي بكر بن نصر-وهو من معاصريه - من قصيد أنشده إيّاه، وصف فيه نواوير عدّة[الطويل]:

ومن نرجس نضر يروقك درّهُ وياقوته السامي به وزبرجدُهْ
وكم للربيع الطلق نوْرا منّورّا تُنتّجه أيدي الحيا و تولّـــدهْ

فيقول:"قوله ومن نرجس يعني البهار.وصفته على ذلك دالّة.وياقوته السامي لو أمكنه أن يذكر لونه فيقول المصفرّ أو نحوه لكان أتمّ إذ ألوان اليواقيت كثيرة لكنّه اكتفى بشُهدة الموصوف وهذا للشعراء كثير"(ص52).

ويوازن أحيانا بين ما يتقارب من الأشعار مثل موازنته بين قول أبي بكر بن نصر هذا، وقد روى له قطعا كثيرة، في وصف البهار أيضا، وبين وصف ابن درّاج القسطليّ له. يقول الأوّل[الكامل]:

إذا تأمّلت البهار تأمّـــــــلا أيقنت أنّ المسك منه معـــــارُ
فُضُب الزمرّد مورقـــات فضّة و لها النضار مخلّصا نـــوّ ا رُ

أمّا الثاني فيقول[المتقارب]:

بهار يروق بمسك ذكـــــــــيّ وصنع بديع وخلق عجـــــــبْ
غصون الزمرّد قد أورقـــــت لنا فضّة نُـورّت بالذهـــــــبْ

فيقول معلّقا على وصف الأوّل: "أمّا وصفه البهار فهو كوصف أبي عمر القسطليّ له و يمكن أن يأخذه أو يوافقه"(ص51)، مكتفيا بذكر الاحتمالين: الأخذ أي السرقة الأدبية أو الموافقة أي وقوع الحافر على الحافر، وكأنّنا به يعتاض بالتلميح عن التصريح متجنّبا عبارة السرقة الأدبية.

الأدباء المعتمدون في الاختيار

روى الحميريّ لأكثر من ثلاثين شاعرا وأديبا، أقدمهم زمنا ابن عبد ربّه. على أنّ الذين فازوا بأوفر عدد من النصوص هم معاصروه ممّن رافقهم واحتكّ بهم في بلاط إشبيلية، وأخذ عنهم مشافهة في أغلب الأحيان، مثل شيخه أبي جعفر بن الأبّار وأبي بكر بن القوطيّة صاحب الشرطة في دولة القاضي عبّاد بإشبيلية والوزيرابن مسلمة والفقيه أبي الحسن بن عليّ و القاضي عبّاد و كان يقرض الشعر على غرار جلّ ملوك الأندلس، كما روى لنفسه عدّة قطع شعريّة وأربعة نصوص نثريّة، منها رسالة ردّ بها على رسالة ابن برد الأصغر المعروفة في تفضيل الورد على البهار، مفضّلا البهار على الورد(ص53-67). أمّا من سبقوه زمنا فأبرزهم ابن عبد ربّه(ت328/)وأورد له قطعتين، و قد أورد لابن هانئ(ت362ه)ثلاث قطع ولابن فرج الجيّاني(ت360أو366/970أو976)خمس قطع وللرمادي (ت1013/403) عشرقطع ولعبادة بن ماء السماء(ت1030/421)أربع قطع ولابن درّاج القسطليّ(ت1030/421)سبع قطع.

أمّا الموشّحات فلم تنل رضا أبي الوليد بل نراه جرى مجرى غيره من أصحاب المختارات الذين نبذوها لخروجها على عمود الشعر، ولم يورد منها سوى قفل وبيت من موشّحة شعريّة على البحر السريع لمعاصره أبي الحسن بن عليّ الذي لم يكن من الشعراء أو الوشّاحين المشهورين. ولم يذكر شيئا من موشّحات عبادة بن ماء السماء الوشّاح المعروف، في حين روى له أربع قطع شعرية حسب ما بيّنّاه.

من سمات النصوص المختارة:

جمع الكتاب بين النثر و الشعر كما أسلفنا ذكره.غير أنّ الاختيارات الشعريّة فاقت النثريّة عددا وكمّا. و هي ممّا ألّف في عهد الازدهار الأوّل بالأندلس. ومثلما اشتركت هذه الاختيارات في الموضوع وهو وصف الربيع وأزهاره، اشتركت في القيمة الأسلوبية إذ أرادها صاحبها متميّزة بما فيها من تشبيهات رائقة وصفات بارعة. يقول:"تأمّل أيّها الناظر في كتابي تأمّل اليقظ المتّقد، و المتميّز المنتقد، تر أغرب التشبيهات، وأعجب الصفات، وأبرع الأبيات، وأبدع الكلمات"(ص3). ولئن كان يقدّم لاختياراته عموما بعبارات المدح و الإطراء، فقد يخصّ بعضها، ممّا يبدو له متميّزا، بعبارات ترفعها إلى مراتب عالية. وسننتقي نماذج من هذه النصوص المتميّزة نستعرض ما خصّها به الحميريّ من مديح ونخصّها بالتحليل. أوّلها قطعة للرماديّ(ص12) قال في تقديمها:"وممّا حسن له-رحمه الله-في هذا المعنى، قطعة من قصيدة شَأى بها من تقدّم".ومن هذه القطعة قوله[الطويل]:

تعجّبت من غوص الحيا في حشا الثرى فأفشى الذي فيه ولم يتكلّـــــــم
كأنّ الذي يسقي الثرى صرف قهـــوة ينمّ عليه بالضمير المُكتـَّــــــم

في هذين البيتين تعجّب وتعجيب:عجّبه منظر المطر يغوص في حشا الثرى فيبعث الحياة في صمت وثبات فيهما طاقة خارقة في التعبير عن بهجة الحياة بعلامات أبلغ من الكلمات. و قد استعار للثرى صورة الأنثى المتبرّجة تحمل وتضع عندما تلقّح بالماء، فتتعطّل لغة الكلام لتفسح المجال للغة الفعل وحده. ثمّ شبّه الماء متغلغلا في الثرى بالقهوة وهي الخمرة المنعشة في تمثيل صوّرها تدلّ بالنصبة، ومن المعلوم أنّ دلالة النصبة أبلغ من دلالة الكلام. فيكون شخّص ومجّد، وخيّل في ذات الوقت وجرّد.وبذلك ضرب عصفورين بحجر واحد إذ عجّب القارئ مرّتين:مرّة بأن شرّكه في البيان الذي عجّبه من أمر الطبيعة، ومرّة أخرى بالبيان الذي حقّقه في شعره مبدعا بالكلمات ما أبدعته الطبيعة بواقع الحياة.

وقال في وصف قطعة لابن شهيد:"وله في الربيع قطعة عجيبة من قصيدة طويلة مشتملة على أوصاف، سواها مستغربة، ومعان، غيرها مستعذبة، والقطعة"(ص15)[الكامل]:

سهر الحيا برياضـــــــــها	فأسالها والنور نائـــــــــمْ
حتّى اغتدت زهراتـــــــها	كالغيد باللجج العوائــــــمْ
من ثيّبات لم تُبَـــــــــل	بكشف الخدود ولا المعاصمْ
وصِغارِ أبكار شكـــــــت	خجلا فعاذت بالتمــــا ئمْ
حَيِيَت بطوفان الحيـــــــا	فتضاحكت و الجوُوَاجِــــمْ

هذا رسم لمشهد من الحياة، بل لعملية الخلق لبذرة الحياة، وهل الحيا غير الحياة؟ استهلّ الشاعر الوصف بالحيا وهو المطر و ما يحدثه في الأرض والأحياء، وقفل بوصف الحياة تترتّب عليه وتخرج منه. وتدرّج من الاستعارة(الحيا واهب الحياة)حيث الحيا ليس مجرّد كائن ذي شعور بل أصل تكوين الشعور، إلى التشبيه حيث ساق شريطا متحرّك الصور حركة طبيعية لا اصطناعية، الزهرات فيها غيد سابحات، بعضها ثيّبات سافرات و أخرى أبكار صغيرات متبرقعات خجلات، متفتّحات جميعهنّ بفعل الحيا، في حكم المتضاحكات، المفعمات بنسغ الحياة.

ومن طريف اختياراته كذلك سبع ضاديّات على البحر المجتثّ عارض أصحابها ومنهم المؤلّف ضاديّة لأبي الحسن بن عليّ(فقيه من معاصري الحميريّ)في وصف الربيع ومدح القاضي عبّاد(ص40-49)أورد منها المؤلّف القطع المشاكلة للموضوع. و ننتقي بدورنا مقتطفات من تلك القطع. فمن قطعة الحميريّ قوله:

وأقحوانِ أنيـــــــــــقِ	بُرودُهُ مُبْيَضَّـــــــــــــــهْ
قد طرّزتها بِتِبْــــــــــرِ	عَيْنُ النَّدَى المُرفَضَّــــــهْ
و باقِلاءَ قدَ أبْــــــــــدَى	بِنَوْرِهِ الحُسْنَ مَحْضَــــــهْ
كأنّما هو خـــــــــــالٌ	بِخَدِّ بَيْضاءَ بَضّـــــــــــهْ

قرن أبو الوليد في الوصف بين زهرتين: زهرة الأقحوان وزهرة الباقلاء، لجامع بينهما:بياض البرود وهي الأوراق وإن افترقت الزهرتان في لون الأصل. فالأوّل أصفر صوّره مطرّزا بالتبر وهو الذهب، والثاني أسود تولّد حسنه من بياض موقع بسواد كالخال في خدّ الحسناء.فأوحى بالانسجام الواضح في تناسق الألوان، و التناغم الناجم من تفاعل النبات وقطر الندى، فدلّ على تلاقي الزهرتين في معنى كرم الأصل:كرم الحجر ممثّلا بالتبر وكرم البشر ممثّلا بالمرأة الجميلة.

أمّا قصيدة أبي جعفر بن الأبّار فنورد منها الأبيات الأربعة الأولى:

لا تَرْضَ لِلَحْظِ غَضّــــــهْ	والمَحْ من النَوْرِغَضّــــــهْ

خَدُّ الربيعِ تَبَـــــــدّى　　فَصِلْ بِلَحْظِك عضـّـــــــه
شقائقٌ شقّ قلبـــــــي　　رُوَاؤُها واقْتَضـّـــــــهْ
كأنّما الأرضُ منهـــــا　　خَرِيدَةٌ مقتَضـَّــــــــهْ

بنى الشاعر هذه الأبيات على مبدإ يعرب عن ثقافة، وانطباع يعكس تجربة، إذ تدرّج من الإنشاء أمرا ونهيا(لا ترض، المح، ص ل)إلى التقرير حيث قدّم خبرا وصوّر في النفس أثرا، مندمجا بذلك في مشهد يصفه وقد حلّ فيه، في جدليّة عجيبة كان فيها الواصفَ وجزءا من الموضوع الموصوف. في نفس الوقت يرى الصورة ويرى نفسه فيها.يدعو- في أسلوب الموشّحات الحيّة- إلى اقتناص الفرصة قبل الزوال، واغتنام اللذّة قبل فوت الأوان، مصرّعا البيت الأوّل، مجانسا جناسا تامّا بين مقطعي الشطرين منه، يختلف معناهما في اللغة وتتماثل أصواتهما في النصّ، فيعكسان مطابقة في النفس، بين رفض غضّة اللحظ وفرض غضّة النوْر.وإنّ لذلك لآمرا ناهيا خفيّا هو الربيع ممّا يحتّم توظيف جميع الحواسّ في التنعّم بلذّة الدنيا:البصر والشمّ والذوق و اللمس، إلّا لذّة السمع.ولعلّ السياق قد اتّسع لها فيما لم نرو من الأبيات. أمّا لذّة الإحساس والشعور المعنويّة والماديّة، فمثّلهما بالقلب ينشقّ، في الجناس الناقص بين شقائق وشقّ، حيث أضاف الجناس للشقائق وظيفة التأثير الجارح في النفس، وقصر معنى شقّ على ما تفعله الشقائق ثمّ مثّلها بالخريدة المفتضّة، موحيا بجرح نازف ثان.وفي كلا الجرحين عذاب له معنى النشوة القصوى واللذّة التي لا مزيد بعدها.

أمّا الاختيارات النثرية فنكتفي منها بفقرة قصيرة مسجوعة(ص7)- على غرار جميع ما ورد من نثر في الكتاب- نحلّلها تحليلا أسلوبيّا إيقاعيّا يطول شيئا ما إلّا أنّنا نراه ضروريّا لإبراز مدى ما يتضمّنه السجع الحيّ من إبداع ولتأكيد دور السجع بما يحتويه من إيقاع في تعميق المعنى.

هذه الفقرة رسالة تتضمّن دعوة وجّهها صديق إلى صديق له يستقدمه في ظرف رائق:الزمان ربيع والمكان روض مريع، جمع فيها بين التعبير عن الشوق تعلّقا، والحرص على التشويق ترغيبا في تلبية الدعوة. وفيما يلي إعادة لكتابة النص كتابة إيقاعية راعينا فيها خصائص السجع:

الفِقر مرقمة	عدد المقاطع (بالوقوف على الساكن في أواخر الفقر على ما يقتضيه التلفظ بالسجع)
كتبت إليك والأرض ...	
1- تستطير باستطارة شوقنا إليك	14
2- وتهمّ أن تستقلّ بنا نحوك	13
إذ صرنا بروضة استعارت...	–
3- لون السماء بخضرتها	10
4- وزُهر نجومها بأنوارها	12
5- وبدور تمّها بأقمارها	12
فقد...	–
6- افترشنا ثوب السماء	8
7- واحتوينا زهرة الدنيا	9
و بيننا[أزهار؟]	–

8- متطلّعة إليك بأعناق الغزلان 15
9- ولسمع حسّك مصيخة الآذان 14
فإن عجّلت...
10- قهقهت طربا 6
11- وتُبودرَت نخبا 8
وإن أبطأت...
12- أظلم في أعيننا النور 9
13- وكادت الدنيا بنا تمور 10
... و السلام.

غلب الازدواج على النصّ و كان ذا مظاهر عديدة:

1- خروج وحدات الكلام في قالب فقر متجمّعة اثنتين اثنتين، موحّدة القافية في الشقّين إلّا في 3و4و5، حيث تجمّعت ثلاث فقر تشترك في قافية واحدة، تنويعا وخروجا من الرتابة.

2- تقارب المعنى بين الفقرتين في كلّ زوج وبين الفقر الثلاث في الثالوث المذكور، بحيث بني الكلام على التطريز. وعودة المعنى في كلّ مقام تدلّ على أنّ الرسالة- وهي ذات قيمة توصيليّة في الأصل- مشحونة بقيم إضافيّة:تعبيريّة و تأثيريّة وجماليّة. ذلك أنّها محمَّلة أسمى عبارات الشوق إلى المخاطب، مضمَّنة أبلغ معاني الاستدراج والاستمالة، متجاوزة في ذلك حدود الرسالة، مرتقية إلى مستوى النشيد بما فيها من تمجيد.

3- تظافر نصّين في الرسالة. فإذا هي طرس أكثر منها نصّا، تخضع للازدواج النصّي خضوعها للازدواج في وحدات الكلام. إذ بقراءتنا الفقر الأوائل وحدها نتحصّل على نصّ يقابله نصّ ثان يتكوّن من الفقر الثواني.

يتكوّن النصّ الأوّل من الفقر: 1-3-6-8-10-12
ويتكوّن النصّ الثاني من الفقر: 2-4-5-7-9-11-13

ليس جميع ذلك من قبيل التكرار المجرّد، بل من باب الجمْع بين الوجه والقفا، المادّي والمعنوي، المجرّد والمجسّد، وإجمالا بين المعنى وقيمة المعنى بما يدلّ على أنّ المعنى في هذا الكلام يتقدّم مشفوعا بقيمته النقديّة، وإذا التكرار ينفي التكرار.

وإنّ درجة الكلام لتسمو كذلك بالصور الجزئيّة أيضا، و قد أفضت في تفاعلها إلى صورة كلّية قائمة على ما بثّه الشاعر في الجمادات من حيويّة:"فالأرض تستطير...وتهمّ أن تستقلّ...والروضة استعارت لون السماء..."ومع الأرض عناصر أخرى من الطبيعة [أزهار؟] "متطلّعة إليك بأعناق الغزلان..."بحيث كان الوصف وصفا كيانيّا حيّا يرسم بهجة الدنيا في أبهى تجلّياتها.

كلّ ذلك يكشف أنّ ما كان في المنطلق دعوة إلى الحضور صار دعوة إلى المشاركة ولو مع الغياب لأنّ الوصف الحيّ الذي خصّ به المرسل الطبيعة يقضي على كلّ معنى للغياب. و قد وفّق الكاتب إلى خلق عالم جديد عجيب تندكّ الحواجز فيه بين حدود المكان، لأنّ المكان أضحى "يستطير"، وبين حدود الزمان حيث يتساوى النور والظلمة.

نتساءل في آخر المطاف إلى أيّ مدى كان النص رسالة إلى متلقّ مستهدَف بالخطاب؟ فلعلّه ليس "كتابة إلى" بقدرما هو كتابة وكفى.إذن إبداع خالص غير مقيّد بالظروف والملابسات المذكورة وغيرالمذكورة، القصد منه تخليد الصورة تخليدا جاء عن طريق الازدواج، كلّ فكرة تتبعها صورة، تتبلور في صورة وكأنّ الكاتب يطرّز تطريزا غرزة بعد غرزة.وكأنّ روعة المكان دعته إلى تثبيت الصورة قصد تخليدها.فكانت هذه الدعوة.فعشق المكان ولّد عشق الخلّان.و لعلّ النصّ- وهذا أدقّ وأخفى- كتابة في الجنّة وكيف إنّ معناها يتأكّد بالتأنّس، وينتفي أصلا إذا عدم فيها الخلّ الودود أوالحبيب الأنيس.

أردنا بهذا الغوص في نماذج قصيرة من اختيارات كتاب "البديع في وصف الربيع" أن نقدّم صورة حيّة عن مستوى الإبداع فيه و أن نبرز مقدار ما بلغه الأدب الأندلسي في القرن الرابع و بداية الخامس أي قبيل عصر الأندلس الذهبيّ، من بلاغة في القول وعمق في الإبداع. فهذه الاختيارات لا تمثّل إلّا جزءا يسيرا من ثمرة قرائح أدباء الأندلس، جزءا محدودا مكانا وزمانا إلّا أنّه يُنبي عن حركة أدبيّة نشيطة و ثروة شعريّة و نثريّة وفيرة.

ذلك أنّ الحميريّ- كما رأينا - اقتصر على الانتقاء لأدباء عصره الأقربين منه زمانا و مكانا ممّن جالسهم في بلاط القاضي عبّاد بإشبيلية، وبادلهم الرسائل والمساجلات الشعرية، أمثال شيخه أبي جعفر بن الأبّار و الوزيرأبي عامربن مسلمة و الفقيه أبي الحسن بن عليّ، أوممن سبقوه بقليل مثل ابن شُهيد وابن درّاج و الرمادي. ولم يخالف هذه القاعدة إلّا في أحايين نادرة مع أدباء لم يكن من الهيّن إغفالهم كابن عبد ربّه وابن فرج الجيّاني وابن هانئ وقلّة من أمراء بني أميّة ممّن كانوا يقرضون الشعر.

كلّ ذلك يجعلنا نتصوّر ما زخرت به بلاطات الأندلس الأخرى من أدباء وشعراء، و ما تردّد في أرجائها من أشعار و تبودل من رسائل و ألّف من كتب ضاع معظمها و بدّدته يد الزمان. فكان أن وصل إلينا من الغرب الإسلامي أسماء أعلام و عناوين آثار أكثر ممّا وصل من مؤلّفات و دواوين. ولا يكاد الأمر يختلف عنه في إفريقية و بلدان المغرب عموما. و إلّا فأين مؤلّفات أساطين من أمثال عبد الكريم النهشلي (ت 405/15-1014) أوالقزّاز القيرواني (ت 412/22-1021) أو إبراهيم الرقيق(ت بعد 418/28-1027) صاحب "تاريخ إفريقية و المغرب" و غيرهم؟ على أنّ هذا كلّه لا يستقيم حجّة على ضعف الملكة "المغربية" أو تواضع عطاء أدباء الغرب الإسلاميّ.

ذلك أنّ هؤلاء الأساطين استلهموا التراث ككلّ مبدع عربيّ ناءٍ عن الجزيرة، ولكنّهم استجابوا في ذات الوقت لمتطلّبات عصرهم ومصرهم. فأضافوا بقدر ما أفادوا، وكرّروا إلّا أنّهم غيّروا أيضا و طوّروا و جاؤوا أحيانا بما لم يأت به الأوائل. لذلك ينبغي تجديد النظرة إلى ما يتكرّر. فكثير ممّا يتكرّر يتغيّر و يتطوّر، فيحقّق التنمية الثقافية، لأنّ التكرار مع تجديد التوظيف نفي للتكرار في معناه السلبي. فجعلوا بذلك من الغرب الإسلامي مركزا ثقافيّا أخذ المشعل من الشرق في بعض أطوار التاريخ، كان فيها معيدا ولكن رائدا أيضا و مريدا. فالمركزيّة الثقافيّة مفهوم يدلّ على مكانة اعتباريّة : أدبيّة و فكريّة، لا على مكان ذي موقع جغرافيّ ثابت لا يتحرّك. و قيمة التراث لا تنحصر فقط في الثقافة الحيّة التي يحملها بل تتجاوز ذلك لتشمل أيضا الإضافة المنعشة التي يحتملها.

هكذا يتأكّد لدينا أنّ عقدة شرق/غرب صوّرها أعلام الغرب الإسلامي في بياناتهم النقديّة و تغلّبوا عليها بل تجاوزوها في إنجازاتهم الأدبيّة. أفلا يصحّ عندئذ القول بأنّ الشمس قد تشرق من الغرب أيضا ؟